إشكالية التعارض بين العلم والدين عند ألفين بلانتينجا

منى أحمد محمود أحمد (*)

ملخص البحث

تُعد العلاقة بين العلم والدين من أبرز القضايا الفلسفية التي أثارت جدلاً واسعاً عبر تاريخ الفكر الفلسفي؛ إذ تباينت المواقف بشأنها بين من يرى أنها علاقة صراع وتعارض، ومن يؤكد على إمكانية التوافق والتكامل بينهما. وقد سعى الفيلسوف الأمريكي ألفين بلانتينجا Alvin Plantinga (١٩٣٢ -) إلى إثبات عدم وجود تعارض جوهري بينهما، وأكد أن التعارض بين الاعتقاد الديني ونظرية التطور ليس جوهرياً؛ إذ ينشأ من فهم محدود لكليهما. ومن هنا تتمثل الإشكالية الرئيسية لهذا البحث في السؤال الآتي: إلى أي مدى استطاع بلانتينجا أن يقدم معالجة فلسفية تنفي التعارض بين العلم والدين وتؤسس لإمكان التوافق بينهما؟ وقد اعتمد البحث على المنهج التحليلي لتوضيح طبيعة التعارض المزعوم وإبراز الأسس الفلسفية التي بنى عليها بلانتينجا موقفه من هذه الإشكالية، والمنهج المقارن لمقارنة آرائه بآراء الفلاسفة السابقين عليه والمعاصرين له، وذلك بغية إبراز أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم في معالجة هذه الإشكالية، والمنهج النقدي لتقييم حجته التطورية الموجهة ضد المذهب الطبيعي، والوقوف على قيمتها الفلسفية. ويخلص البحث إلى أن بلانتينجا قدم حجة قوية تُثبت أنه يوجد تعارض جوهري بين المذهب الطبيعي ونظرية التطور، ومن ثم تعارض جوهري بين المذهب الطبيعي والعلم. ويتضمن البحث ثلاثة عناصر أساسية:

- ١- نظرية التطور والاعتقاد التألّهي.
- ٢- مفهوم التدخل الإلهي.
- ٣- الحجة التطورية الموجهة ضد المذهب الطبيعي.

(*) هذا البحث مستل من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [فلسفة الدين عند ألفين بلانتينجا]، وتحت إشراف: أ. د. نصار محمد عبدالله - كلية الآداب - جامعة سوهاج & أ. د. علي حسين قاسم - كلية الآداب - جامعة سوهاج.

في البداية نود أن نشير إلى أن بلانتينجا أولى اهتمامًا كبيرًا لقضية التعارض بين العلم والدين. وعلى الرغم من أنه ركز جهوده على دراسة مسألة التعارض بين العلم والاعتقاد المسيحي، يشير إلى أن غالبية أقواله بشأن هذا التعارض لا تنطبق على المسيحية فحسب، بل تنطبق أيضًا على الأديان التوحيدية الأخرى⁽¹⁾. وفيما يلي سوف نتعرف على موقفه من هذه الإشكالية.

١ - نظرية التطور والاعتقاد التألهي:

يقر بلانتينجا بأن الصراع بين العلم والدين يشكل جزءًا من التراث الفكري للإنسانية. ويتضح ذلك من قوله: "ومع ذلك، شننا أم أبينا، كان ولا يزال يوجد صراع واضح بين الدين والعلم. فكثير من المسيحيين لديهم تصور مبهم بأن العلم الحديث يتعارض بطريقة ما مع الاعتقاد الديني، ويعتقد آخرون اعتقادًا راسخًا بوجود ذلك التعارض. وبالمثل، يرى كثير من العلماء والمتحمسين للعلم تعارضًا بين الاعتقاد الديني والعلم. وفي الواقع، يدعي البعض أن الاعتقاد الديني يشكل بالفعل خطرًا واضحًا على العلم. ويرى آخرون أن الدين يفقد بريقه تدريجيًا أمام التقدم العلمي"⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أن بلانتينجا خصص فصلين كاملين من كتابه: "أين يكمن التعارض حقًا؟ العلم والدين والمذهب الطبيعي" *Where the Conflict Really Lies: Science, Religion and Naturalism*، وذلك لتحليل وتقييم الجوانب الخلافية بين نظرية التطور والاعتقاد المسيحي.

ووفقًا لبلانتينجا يعبر مصطلح التطور *Evolution* عن مجموعة متنوعة من الفرضيات: فرضية الأرض القديمة *The Ancient Earth Thesis*، وفرضية النشوء والارتقاء *The Thesis of Descent with Modification*، التي تشير إلى أن التنوع البيولوجي الهائل الذي نراه اليوم قد نشأ من خلال أجيال تتغير بنحو ضئيل ودقيق عن أسلافها، وفرضية السلف المشترك *The Common Ancestry Thesis* التي تدعي، حسب تعبير ستيفن جاي جولد *Stephen Jay*

(1) Alvin Plantinga, *Where the Conflict Really Lies: Science, Religion, and Naturalism*, (New York: Oxford University Press, 2011), 25.

(2) *Ibid.*, 29.

Gould (١٩٤١-٢٠٠٢)، وجود شجرة من النسب التطوري Evolutionary Descent تربط جميع الكائنات الحية بروابط النسب.

ويستخدم بلانتينجا مصطلح التطور للإشارة إلى اقتران هذه الفرضيات الثلاث. ويشير أيضًا إلى فرضية رابعة تقول بأن الآلية الرئيسة التي تحرك عملية النشوء والارتقاء هي الانتقاء الطبيعي Natural selection الذي يتولى غرلة الطفرات الجينية العشوائية Random Genetic Mutations. وقد أطلق على هذه الفرضية اسم الداروينية Darwinism، لأن داروين قدم فرضية مشابهة مفادها أن الانتخاب الطبيعي هو الوسيلة الرئيسة، إن لم تكن الوحيدة، للنشوء والارتقاء^(١). ويجادل بلانتينجا بأنه لا يوجد تعارض بين الاعتقاد الديني وجميع هذه الفرضيات، بما فيها الداروينية، وهذا الأمر يتضح لنا من قوله:

"يوجد مصدر محتمل للتعارض يتعلق بعبقيرة الخلق المسيحية، خاصة الادعاء بأن الله خلق البشر على صورته. ويعني ذلك أن الله قصد أن يخلق كائنات واعية، تمتلك حسًا أخلاقيًا، ولديها القدرة على معرفة خالقها ومحبته، ثم تصرف وفقًا لهذا القصد. يتوافق هذا الادعاء بوضوح مع نظرية التطور، وقد أقر اللاهوتيون المسيحيون المحافظون بهذا التوافق منذ عام ١٨٧١م. لكن هل يتوافق هذا الادعاء مع الداروينية أيضًا؟ يبدو أنه يتوافق معها بالفعل. كان بمقدور الإله أن يوجه الطفرات الصحيحة في الأوقات المناسبة ويحمي الكائنات من المخاطر المختلفة. بهذه الطريقة، ومن خلال توجيه عملية التطور، كان بإمكانه ضمان ظهور الكائنات التي يريدها"^(٢).

وإذا كان من يعتقد بأن التطور غير موجه يستند في اعتقاده هذا إلى أن نظرية التطور الحديثة تقول بأن الطفرات الجينية عشوائية، بمعنى أنها غير مسببة وتحدث عن طريق الصدفة، فإن بلانتينجا يشير إلى أن هذا القول ليس صحيحًا ويستشهد بأن إرنست ماير (١٩٠٤-٢٠٠٥) Ernst Mayr، أحد أبرز علماء الأحياء في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، قد ذهب إلى القول بأنه عندما يُقال

(١) Alvin Plantinga. "Science and Religion: Where the Conflict Really Lies." In *Science and Religion: Are They Compatible?* by Daniel C. Dennett and Alvin Plantinga (New York: Oxford University Press, 2011),

3.

(٢) Ibid., 4.

إن الطفرات عشوائية، فهذا يعني ببساطة أنه لا يوجد ارتباط بين إنتاج الأنماط الجينية الجديدة واحتياجات الكائن الحي التكيفية في بيئته.

أيضًا يشير بلانتينجا إلى أن الفيلسوف الأمريكي إليوت سوبر (1948- Elliott Sober) قد عبر عن وجهة النظر هذه بطريقة أدق، حين ذهب إلى القول بأنه لا توجد آلية فيزيائية (سواء داخل الكائنات الحية أو خارجها) يمكنها أن تحدد الطفرات التي ستكون مفيدة وتسبب حدوثها. والفكرة الأساسية هنا أن الطفرة تُعد عشوائية إذا لم يكن لدى الكائن الحي ولا لدى بيئته أي آلية أو عملية أو عضو يتسبب في حدوث طفرات تكيفية. لكن من الواضح أن الطفرة يمكن أن تكون عشوائية بهذا المعنى، وفي الوقت نفسه مقصودة وناتجة عن إرادة إلهية. ومن ثم، لا تعني العشوائية المرتبطة بالداروينية أن العملية خالية من التوجيه الإلهي. فحقيقة أن البشر قد نشؤوا من خلال الانتقاء الطبيعي الذي يعمل على طفرات جينية عشوائية (إن كانت حقيقة) لا تتعارض إطلاقًا مع كونهم مخلوقين على صورة الله ووفق تدبيره الإلهي⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس، يؤكد بلانتينجا أن الداروينية تتوافق تمامًا مع فكرة أن الله هو الموجه والمدير والمُشرف على عملية التطور بأكملها. ولأنه يرى أنها تتوافق كلية مع الفكرة القائلة بأن الله هو من يسبب الطفرات الجينية العشوائية التي ينتقها الانتقاء الطبيعي، نجد أنه أكد أن الذين يزعمون أن نظرية التطور تُثبت عدم تصميم البشر والكائنات الحية الأخرى يخلطون بوضوح بين التفسير الطبيعي للنظرية العلمية وبين النظرية نفسها. فالادعاء بأن التطور يُظهر عدم تصميم البشر والكائنات الحية الأخرى ليس جزءًا من النظرية نفسها، بل هو إضافة مينا فيزيقية أو لاهوتية.

وفي هذا الصدد يقول بلانتينجا: "بطبيعة الحال، يشير المذهب الطبيعي إلى أننا لم نُصم أو نُخلق على صورة الله (لأنه يتضمن إنكار الوجود الإلهي) لكن العلم التطوري في حد ذاته لا يشير إلى هذا المعنى الضمني. إن المذهب الطبيعي ونظرية التطور معًا يستلزمان إنكار التصميم الإلهي، لكن نظرية التطور بمفردها لا تستلزم هذا الإنكار. فالجمع بين العلم التطوري والمذهب الطبيعي هو ما يستلزم

(1) Ibid., 5-6.

هذا المعنى. ولأن المذهب الطبيعي في جوهره ينطوي على هذا الإنكار، ليس من المستغرب أنه عندما تربطه بالعلم -أو بأي شيء آخر سواء أكان الأعمال الكاملة لويليام مكجوناجل William McGonagall ، أم "تقويم المزارعين" Farmer's Almanac، أم قانون الإيمان الرسولي Apostle's Creed— سيكون لهذا الاقتران أيضًا نفس المعنى الضمني"^(١).

بناء على ما سبق ذكره، يمكن أن نلاحظ أن بلانتينجا رفض الادعاء القائل بأن التطور غير موجه إلهيًا، استنادًا إلى الرؤى العلمية الحديثة التي لا تدعم هذا الادعاء، وتوضح أن العشوائية في الطفرات لا تعني غياب السببية، بل تعني فقط أنها ليست استجابة مباشرة لاحتياجات الكائن الحي.

ومن الجدير بالذكر أن بلانتينجا يعمن النظر في آراء ريتشارد دوكينز التي تقيد بأن نظرية التطور الحالية تتعارض مع المعتقدات التاليفية، ويسعى لإثبات أن أطروحاته غير مدعومة بالأدلة الكافية.

وعلى سبيل المثال، إذا كان دوكينز قد رفض فكرة وجود المصمم الذكي الذي يوجه عملية التطور؛ وأكد أن أدلة التطور تكشف عن كون بلا مصمم، فإن بلانتينجا يشير إلى أن دوكينز عندما حاول إثبات زعمه الذي مفاده أن الانتقاء الطبيعي غير الموجه من الممكن أن يؤدي إلى إنتاج كل هذه العجائب الموجودة في الكائنات الحية، هاجم بعض الحجج التي تدحض هذا الزعم وتجاهل البعض الآخر. ومن الحجج التي تجاهلها، على سبيل المثال، على الرغم من أنها لاقت قبولًا لدى كثيرين، حجة جون لوك التي مفادها أنه من المستحيل تصور أن تنتج المادة غير العاقلة كائنًا عاقلًا ذكيًا، تمامًا كما يستحيل أن ينتج العدم المادة من تلقاء نفسه^(٢).

وأعتقد أن بلانتينجا، من خلال هذا النقد الذي مفاده أن دوكينز ينتقي الانتقادات التي يواجهها بدلًا من معالجتها جميعًا، أراد أن يلفت انتباهنا إلى أنه يمارس إقصاء معرفيًا يخدم موقفه لكنه لا يخدم الحقيقة.

ويعلق بلانتينجا على ادعاء دوكينز الذي مفاده أنه توجد سلسلة تطور داروينية تفسر أشكال الحياة المعاصرة فيقول: "من المهم هنا التمييز بين الادعاء Claim والإجراء Performance . يدعي دوكينز أنه سيثبت نشوء جميع أشكال

(١) Ibid., 6-7.

(٢) Alvin Plantinga, *Where the Conflict Really Lies*, 44-45.

الحياة دون أي تصميم مسبق. لكن ما يقدمه في الحقيقة هو مجرد ادعاء يُشير إلى احتمالية حدوث ذلك، ويشير كذلك إلى أنه ليس بمقدورنا إثبات أن هذا الاحتمال ضئيل جداً. فكل ما نعرفه هو أنه ليس احتمالاً مستبعداً تماماً. لكن الادعاءات بإمكانية حدوث شيء ما دون أدلة قوية ليست مقنعة⁽¹⁾.

وإذا كان دوكينز قد ذهب إلى القول بأن محاولة تفسير التنوع المذهل للحياة من خلال فرضية مبنية على فكرة التصميم هي محاولة غير موفقة، لأن أي كائن قادر على خلق الحياة لا بد من أن يكون هو نفسه معقداً للغاية، فإن ما فهمه بلانتينجا من هذا القول هو أن دوكينز يريد أن يطرح الحجة الآتية: لا يوجد غير تفسيرين للحياة: الأول هو الداروينية غير الموجهة Unguided Darwinism ، والثاني هو الداروينية الموجهة Guided Darwinism التي قد تفترض وجود التصميم. وبما أن التفسير الأخير لا يعتبر تفسيراً صحيحاً على الإطلاق؛ فإن المرشح الوحيد المتبقي هو الداروينية غير الموجهة.

ووفقاً لبلانتينجا توجد مشكلتان هنا: الأولى هي أن هذه الحجة لا تعتمد على مبادئ علم الأحياء؛ فهي بعيدة عنه إلى حد كبير⁽²⁾. أما المشكلة الثانية فيعرضها على النحو التالي:

"لنفترض أننا هبطنا على كوكب غريب يدور حول نجم بعيد، وأنا وجدنا على هذا الكوكب أدوات تشبه الجرارات من طراز أليس تشالمرز Chalmers Allis موديل ١٩٤١م وتعمل مثلها تماماً. ويقول قائدنا: "لا بد من وجود كائنات ذكية على هذا الكوكب -انظروا إلى تلك الجرارات!" ويعترض أحد طلاب الفرقة الثانية بقسم الفلسفة، وهو عضو في الفريق الاستكشافي قائلاً: "مهلاً! لم تفسر شيئاً على الإطلاق! فأى حياة ذكية صممت تلك الجرارات لا بد من أن تكون، على الأقل، بنفس درجة تعقيدها!" لا شك أننا سنرد عليه بأن القليل من المعرفة قد يكون خطيراً، وسننصحه بالعودة إلى الوطن على متن أول سفينة فضاء كي يتابع دراسة الفلسفة من خلال مقرر أو اثنين إضافيين، لأن من المنطقي في هذا السياق أن نفترض أن تلك الجرارات هي نتيجة لعملية تصميم ذكي، حتى لو كانت هذه العملية تتطلب مستوى من التعقيد يعادل تعقيد الجرارات نفسها. المغزى هنا أننا لا نحاول

(1) Ibid., 55, 57.

(2) Ibid., 58-59.

تقديم تفسير نهائي للتعقيد المنظم Organized Complexity، ولا نحاول تفسير التعقيد المنظم عمومًا، بل نحاول فقط تفسير مظهر معين واحد من مظاهره (أي تلك الجرات). ومن المناسب تمامًا تفسير أحد مظاهر التعقيد المنظم من خلال مظهر آخر (ما لم تكن تحاول تقديم تفسير نهائي للتعقيد المنظم)^(١).

ومن هذا المنطلق، يؤكد بلانتينجا أن التفسير القائم على التصميم الإلهي ليس تفسيرًا مستبعدًا كما يزعم دوكينز. ويذهب إلى القول بأنه على الرغم من أن مثل هذا التفسير لا يشكل تفسيرًا نهائيًا للتعقيد المنظم، لا يقلل هذا بأي حال من الأحوال من قيمته^(٢).

وإذا كان دوكينز قد ذهب في كتابه وهم الإله The God Delusion إلى القول بأن احتمالية وجود الله ضئيلة للغاية، وأنه ليس من المستبعد بقدر كبير أن تتطور الحياة من خلال الداروينية غير الموجهة، ولهذا علينا قبول الداروينية غير الموجهة على اعتبارها التفسير الأفضل لنشوء الحياة، فإن بلانتينجا يعترض على وجهة نظره هذه، ويرى أنه حتى لو افترضنا أن الداروينية غير الموجهة أكثر احتمالًا من التفسير الذي يتضمن التصميم، فإن هذا لا يعني أنه يجب اختيارها على اعتبارها تمثل التفسير الأفضل، لأن التفسير الجيد لا يعتمد فقط على احتمالية حدوثه. ويدعم بلانتينجا وجهة نظره من خلال طرح المثال الآتي:

"نفترض، على سبيل المثال، أنك تسمع ضجيجًا صاخبًا قادمًا من ملعب نوتردام لكرة الرجبي. توجد عدة احتمالات لتفسير هذا الضجيج، قد يكون بسبب هدف سجله الفريق الإيرلندي بلمس خط النهاية، أو تسجيل نقطة إضافية، أو هدف من ركلة مباشرة، أو التصدي بسلامة لكرة الخصم، أو تمريرة طويلة غير مقطوعة، أو الانطلاق بسرعة من خط الحماية، أو إسقاط اللاعب الخصم أرضًا، أو اعتراض تمريرة. إذا افترضنا أن هذه التفسيرات الثمانية هي الاحتمالات الوحيدة، وأن احتمالية التفسير الأول تزيد قليلًا لتكون ٢، هل علينا قبول هذا التفسير فقط لأن احتماليته أعلى قليلًا من البقية، على الرغم من أنها لا تصل إلى

(١) Ibid., 59-60.

(٢) Ibid., 60.

٥؟ ما الذي حدث حيال اللاأدرية أو الامتناع عن تبني معتقد معين؟ ولماذا نفترض سلفاً أن وجود إله أمر غير محتمل؟"^(١).

واستناداً إلى ما سبق، يتضح أن بلانتينجا رفض جميع الانتقادات التي قدمها دوكينز بشأن التناقض بين نظرية التطور الحالية والاعتقاد التآلهي، لأنها تستند إلى افتراضات غير مثبتة، ولا تقدم دليلاً حاسماً يثبت استحالة التوافق بينهما.

وينتقل بلانتينجا إلى الحجج التي قدمها الفيلسوف الأمريكي دانيال دينيت (١٩٤٢-) Daniel Dennett لإثبات أن نظرية التطور الحالية تتعارض مع المعتقدات التآلهية. ويشير إلى أن الإسهام الجوهرى له في هذا الموضوع هو كتابه "فكرة داروين الخطيرة" Darwin's Dangerous Idea. وفي الواقع يؤيد دينيت هذه الفكرة ويدافع عنها بشدة. ووفقاً له، مفاد هذه الفكرة أن هذا العالم الحي، بكل ما فيه من جمال وعجائب وتصميم مدهش، لم يكن نتيجة خلق إلهي، ولا ناتجاً عن فاعل شبيه بالله، بل هو نتاج عملية الانتقاء الطبيعي التي تنتقي الطفرات الجينية العشوائية، وهي عملية عمياء وغير واعية وميكانيكية، ولديها القدرة على خلق التصميم من حالة الفوضى دون الحاجة إلى وجود عقل مدبر^(٢).

وبالنسبة إلى دينيت، سبب خطورة هذه الفكرة هو أن قبولها يجبر المؤمنين على إعادة النظر في جميع أفكارهم الطفولية عن الله والأخلاق والقيم ومغزى الحياة وما إلى ذلك، لأن من يؤمن بوجود الله يرفض الفكرة التي مفادها أن العقل والذكاء والتخطيط والتنبؤ أمور ظهرت في مرحلة متأخرة من تاريخ الكون. إنه يرفض تلك الفكرة لأنه يؤمن بأن الله، أعظم مثال على العقل، كان موجوداً منذ الأزل، وبالتالي كان العقل موجوداً دائماً، وكان دائماً عنصراً أساسياً وفعالاً في خلق وتصميم كل ما هو موجود في هذا الكون. وفي الواقع، يعتقد كثير من المؤمنين بالله أن من المستحيل نشوء العقل من مادة غير واعية^(٣).

وفي ما يتعلق بوصف دينيت ودواكنز للشخص الذي يرفض نظرية التطور بالجهل، يعلق بلانتينجا تعليقاً ساخراً على هذا الوصف فيقول: "يبدو أن نظرية التطور مثل القانون؛ الجهل بقواعدها لا يُبرّر مخالفتها. هنا يذكرنا كل من دينيت

(١) Ibid., 62-63.

(٢) Ibid., 67- 68.

(٣) Ibid., 68-69.

ودوكينز بفئة معروفة من الشخصيات الدينية ممن إذا خالفتم الرأي، فأنت عندهم لست مخطئاً فحسب، بل شرير تستحق العقاب، إن لم يكن في الدنيا فبال تأكيد في الآخرة"^(١).

وفي رأبي أن بلانتينجا محق في سخريته من دينيت ودوكينز، لأن وصفهما لمن يرفض نظرية التطور بالجاهل يعكس نفس النزعة الإقصائية التي يعلنان رفضها. فبينما هما يسخران من الأديان لأنها ترفض التشكيك وتتعامل مع أفكارها بوصفها حقائق مطلقة، يطرحان نظرية التطور باعتبارها يقيناً مطلقاً لا يحتمل التشكيك. ومن هنا، يمكن أن نلاحظ أن موقفهما يقوض مبدأ الحوار العقلاني نفسه، لأنه يحكم على المخالف بالإقصاء بدلاً من الانخراط معه في نقاش مفتوح.

وفي الحقيقة أن زعم دينيت بأن الحياة نفسها قد نشأت نتيجة تفاعلات فيزيائية وكيميائية منتظمة، وبأن الانتقاء الطبيعي قد أنتج اللغة والعقل، كما أنتج أيضاً ميولنا الفنية والأخلاقية والدينية والفكرية، دفع بلانتينجا إلى أن طرح التساؤل الآتي: هل من الممكن حقاً أن تكون اللغة، أو الوعي، أو القدرة على تأليف موسيقى إبداعية، أو إثبات مبرهنات عدم الاكتمال لجودل Gödel's incompleteness theorems ، أو حتى استنباط فكرة الانتقاء الطبيعي، قد نشأت عن عمليات غير واعية من هذا القبيل؟

ويرفض بلانتينجا تلك الادعاءات، لأنها من وجهة نظره صعبة القبول، ولتوضيح ذلك يقول: "تعتبر القصدية Intentionality، على سبيل المثال، من أبرز خصائص الفكر. وبفضلها نكون قادرين على توجيه الفكر نحو موضوعات معينة، حتى تلك البعيدة عن متناولنا مثل إسبرطة القديمة، والانفجار العظيم Big Bang، والملاك جبرائيل Angel Gabriel، والنظريات المنطقية، والمبادئ الأخلاقية، والعوالم الممكنة Possible Worlds، والحالات المستحيلة، والإله نفسه وغير ذلك الكثير. هل من الممكن حقاً أن تكون هذه القدرة قد نشأت (بدءاً من البكتيريا، على سبيل المثال) عن طريق عملية عشوائية غير موجهة؟"^(٢).

ويستطرد قائلاً: "وفقاً لدينيت، كل هذه القدرات، سواء أبدت لنا مذهلة أم لا، هي جزء مما يسميه فكرة داروين الخطيرة. لكن نشوء العقل ومختلف مظاهر

(١) Ibid., 70.

(٢) Ibid., 72-73.

الحياة عبر عملية غير موجهة يتعارض بطبيعة الحال مع الاعتقاد المسيحي وغيره من الاعتقادات التآليهية، لأن الله، وفقاً للمسيحيين وغيرهم من المؤمنين، أراد للعالم أن يتخذ شكلاً محدداً ومقصوداً، ثم عمل على تحقيق هذا القصد الإلهي وجعله واقعاً ملموساً. علاوة على ذلك، يزعم دينيت أن جميع العقول نشأت من المادة، أي من جزيئات صغيرة غير واعية سبقت ظهور العقل أو الظواهر العقلية. لكن وفقاً للمؤمنين، يوجد عقل أسمى لا ينشأ عن المادة بل يسبقها، وهذا العقل الأسمى هو الله الذي كان موجوداً دائماً ويمتلك معرفة وإرادة أزلية، فالله لم ينشأ عن المادة أو أي شيء آخر ولا يعتمد على أي شيء آخر في جوده^(١).

ومن هذا المنطلق، يرى بلانتينجا أن فكرة داروين الخطيرة كما طرحها دينيت تُعد تجسيداً عميقاً للمذهب الطبيعي، وأنها تُشبه ما كتبه برتراند راسل في مقاله الشهيرة: "لماذا أنا لست مسيحياً؟" Why I am not a Christian منذ سنوات عديدة، مع اختلاف أن راسل استند في طرحه إلى الفيزياء، ودينيت استند إلى البيولوجيا. وأيضاً يرى أن تعارض المذهب الطبيعي الذي يتبناه دينيت، والذي يتشابه مع مذهب راسل، مع الأديان التوحيدية، لا يعني بالضرورة أن فكرة داروين تشكل خطراً عليها. فقد يلاحظ المؤمنون هذا التعارض ويرفضون الفكرة برمتها، وهو تصرف حكيم إلى حد كبير. وتوجد قضايا كثيرة تتعارض مع الاعتقاد التآليهية (مثل القضية القائلة بأنه لا يوجد شيء سوى السلاحف)، إلا أنها لا تمثل تهديداً له. وفكرة داروين لا تُشكل خطراً على الاعتقاد التآليهية إلا إذا كانت تتمتع بقدر من الجاذبية، وكانت توجد أسباب مقنعة تؤدي بنا إلى قبولها ورفض هذا الاعتقاد^(٢).

وخلافاً لوجهة نظر دينيت القائلة بأن علينا قبول فكرة داروين الخطيرة، يرى بلانتينجا أنه لا يجدر بنا قبول هذه الفكرة، لأن نظرية الانتقاء الطبيعي لا تُثبت لنا زعم دينيت الذي مفاده أن كل مظاهر عالمنا، بما فيها العقل نفسه، يمكن أن تكون نتيجة لعملية ميكانيكية عمياء، وغير غائية، وهي عملية التكاثر التفاضلي التي تحدث على مدى فترات زمنية^(٣).

(١) Ibid., 73.

(٢) Ibid., 74-75.

(٣) Ibid., 75-76.

وعلى عكس ادعاء دينيت، لم تقدم الداروينية الجديدة Neo-Darwinism دليلاً قاطعاً على خطأ لوك، ولم تثبت أن الله لا وجود له بالضرورة، بل إنها لم تثبت حتى أنه من الممكن، بالمعنى المنطقي الواسع، أن ينشأ العقل من مادة غير واعية. لم تثبت النظرية تلك المسائل لأنها لم تتطرق إليها من الأساس. فنظرية التطور، شأن النظريات العلمية الأخرى، لا تُصدر أحكاماً بشأن مسائل مثل: هل من الممكن منطقياً أن تنشأ العقول في كون كان في الأصل خالياً من العقل؟^(١) فالداروينية الجديدة لم تثبت أن لوك كان مخطئاً، ولم ينجح دينيت أيضاً في إثبات ذلك.

وإذا كان دينيت قد ذهب إلى القول بأن ادعاء لوك يعني ضمناً أن الروبوتات لا يمكنها التفكير، وأكد أن هذا الادعاء سيكون عرضة للانتقاد والسخرية في العصر الحالي، فإن بلانتينجا يرفض هذا الرأي قائلاً: "حسناً، قد يُشير هذا الادعاء سخريّة البعض، وقد يلقي تأييداً قوياً في بعض الأوساط، أو يُستقبل - على أقل تقدير - باحترام عند آخرين وإن لم يكونوا مقتنعين به. ولكن في جميع الأحوال، ليست السخرية حجة مقنعة ولن ترتقي أبداً إلى مستوى الحجج الصحيحة مثل قاعدة إثبات المُقدّم أو حتى المعضلة البنائية المعقدة Complex Constructive Dilemma. لذلك لم يستطع دينيت ولا نظرية التطور المعاصرة إثبات احتمالية نشوء جميع مظاهر الحياة، بما فيها العقل، نتيجة عملية انتخاب طبيعي غير موجه"^(٢).

وفضلاً عن ذلك، يرى بلانتينجا أنه حتى لو افترضنا (خلاقاً للواقع) أن ادعاء دينيت مُمكن بالمعنى المنطقي الواسع، فهذا لا يعني بالضرورة أنه مُمكن من منظور بيولوجي^(٣).

انطلاقاً مما سبق، يمكننا أن نلاحظ أن رفض بلانتينجا لوجهة النظر القائلة بأن الانتقاء الطبيعي هو المسؤول عن نشوء اللغة والعقل وميولنا الفنية والأخلاقية والدينية والفكرية، نابع من نزعة دينية متجذرة في المسيحية تؤمن بأن العالم هو نتاج خلق إلهي مقصود.

(١) Ibid., 76-77.

(٢) Ibid., 77.

(٣) Ibid.

وينتقل بلانتينجا إلى تناول حجة أخرى طرحها دينيت تفترض أن الله إذا لم يكن موجوداً، فإن الانتقاء الطبيعي -مع استبعاد بعض الاحتمالات غير المرجحة- سيكون عملية غير موجهة. وبالتالي، تهدف حجة دينيت إلى إثبات أن الله غير موجود، أو على الأقل أن الاعتقاد بوجوده لا يستند إلى تفكير عقلائي، ومن ثم لا يُعد الإيمان بالله خياراً مقبولاً لدى من يفكر تفكيراً منطقيًا.

ويشير بلانتينجا إلى أن دينيت يزعم أن الحجج التأليهية التقليدية -مثل الحجة الوجودية، والحجة الكونية، وحجة التصميم- غير مقنعة. وبعد ذلك يفترض أن الإيمان العقلاني بالله يتطلب أدلة علمية بمعناها الواسع، ويفترض عدم وجود أية مصادر أخرى لتبرير الإيمان بالله أو المعتقدات الدينية عمومًا⁽¹⁾. وكذلك يشير بلانتينجا إلى أن دينيت رغم تركيزه على حجة التصميم، يتجاهل إسهامات الفيلسوف البريطاني ريتشارد سوينبرن (١٩٣٤ -) (Richard Swinburne، أحد أبرز المدافعين المعاصرين عن هذه الحجة. فقد قدم سوينبرن على مدار ثلاثين عامًا أو أكثر نسخة قوية ومتطورة للغاية من هذه الحجة.

وفي رأي بلانتينجا، إذا كنا نسعى بجدية للوصول إلى الحقيقة، فمن الحكمة أن ننظر في الأعمال المعاصرة المهمة التي تتناول الموضوع المطروح أو أن نذكرها على الأقل. وحتى لو افترضنا فعليًا بطلان حجج سوينبرن وبطلان جميع الحجج التأليهية الأخرى، فإن هذا لا يعني أن الشخص الذي يؤمن بوجود الله غير عقلائي، أو أن إيمانه يفتقر إلى التبرير، أو يتعارض مع العقل، أو يستحق بطريقة ما التوبيخ أو الانتقاد أو الاستنكار. فأحد الدروس الرئيسية المستفادة من تاريخ الفلسفة الحديثة، بدءًا من ديكارت إلى هيوم، أنه لا توجد حجج قاطعة تؤيد وجود عقول أو ذوات أخرى، أو الماضي أو العالم الخارجي، وغير ذلك كثير. ومع ذلك، ليس من المفترض أن الاعتقاد بوجود هذه الأمور غير عقلائي، أو أنه دون المستوى المعرفي المطلوب⁽²⁾.

ويتراءى لبلانتينجا أن دينيت يعتقد أنه إذا وُجدت مصادر أخرى للمعرفة غير العقل، فإن نتائج تلك المصادر ستكون بالضرورة متعارضة مع العقل. لكن هذا الاعتقاد خاطئ، فالمسيحيون وغيرهم من المؤمنين عادة ما يعتقدون أنهم

(1) Ibid., 81-82.

(2) Ibid., 82-83.

يعرفون من خلال الإيمان حقائق مختلفة لا تندرج ضمن نتائج العقل. بل قد يعتقدون أيضاً أنهم يعرفون من خلال الإيمان أن الله هو خالق هذا العالم. وبالتالي، إذا كان العالم الحي قد نشأ بالفعل عبر عملية التطور، فلا بد من أن يكون الإله الخالق قد أشرف على هذه العملية ووجهها بطريقة ما. وعلى ذلك، فهم يؤكدون وجود معرفة تتجاوز ما يقدمه العقل، ولكنها بالطبع لا تتعارض مع العقل. إنهم لا ينكرون أهمية العقل، تماماً كما يفعل المرء عندما يعتمد على ذاكرته، بدلاً من حواسه، لتشكيل تصورات بشأن ما كان يفعله بعد ظهر يوم أمس، فاعتماده على الذاكرة هنا لا يعني أنه قد تخلى عن الإدراك الحسي. ومن غير المنطقي الجزم بأن العقل هو المصدر الوحيد للمعتقدات الصحيحة أو المبررة، بل إن من المعقول تماماً أن نفترض وجود مصادر أخرى للحقيقة إلى جانب العقل^(١).

ويخلص بلانتينجا إلى القول بأن دينيت على الرغم من أنه لا يعرف شيئاً عن فلسفة الدين التحليلية المعاصرة Contemporary Analytic Philosophy of Religion لم يمنعه هذا من من التعبير عن آرائه وإبداء تصريحات علنية بشأن القضايا المتعلقة بها^(٢).

ويتضح مما سبق عرضه أن رؤية بلانتينجا التي تفيد بأن التعارض بين الاعتقاد الديني ونظرية التطور ليس جوهرياً بل ينشأ من فهم محدود لكليهما، ترجع لاعتقاده بأن الإيمان المسيحي بأن الله خلق البشر على صورته يمكن استيعابه ضمن إطار عملية تطورية يقودها قصد إلهي، واعتقاده بأن الداروينية، التي تفسر تطور الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي، لا تتعارض بالضرورة مع الاعتقاد بوجود قوة إلهية موجهة لهذا التطور. وبذلك يصير التطور آلية محتملة لتحقيق الغاية الإلهية وليس نفيًا لها.

٢- مفهوم التدخل الإلهي

رفض كثير من اللاهوتيين، أمثال بولتمان Rudolf Bultmann (١٨٨٤-١٩٧٦) ولانجدون جيلكي Langdon Gilkey (١٩١٩-٢٠٠٤) وجون ماكوارري John Macquarrie (١٩١٩-٢٠٠٧) الفعل الإلهي الخاص (Intervention Action) (التدخل الإلهي) والفعل الإلهي

(١) Ibid., 87-88.

(٢) Ibid., 92.

خارج إطار الحفظ والخلق) بحجة أنه يتعارض مع مبادئ العلم الحديث. فوفقاً لبولتمان، لا يمكن للشخص الذي يستفيد من الضوء الكهربائي والأجهزة اللاسلكية والاكتشافات الطبية والجراحية الحديثة، أن يؤمن بوجود عالم الأرواح والمعجزات المذكورة في العهد الجديد⁽¹⁾.

وأما لانجدون جيلكي فيذهب إلى القول بأن اللاهوت المعاصر لا يتوقع حدوث أحداث إلهية خارقة للطبيعة بالإمكان ملاحظتها في سياق الحياة الطبيعية والتاريخية، ولا يتحدث عن تلك الأحداث، ويقول بأن افتراض وجود علاقة سببية بين الظواهر، واعتمادنا على التفسير العلمي للأحداث القابلة للملاحظة، يؤثر بنحو جوهري في كيفية تفسيرنا للروايات الدينية⁽²⁾.

وذهب جون ماكواري إلى القول بأن الطريقة التي نفهم بها المعجزات* Miracles، والتي تعتمد على فكرة اختراق قانون الطبيعة وعلى التدخلات الخارقة للطبيعة، تنتمي إلى النظرة الأسطورية التي لم تعد مقنعة في ظل مناخ فكري انتهى فيه التفكير الأسطوري. فالتصور التقليدي للمعجزة لا يتماشى مع فهمنا العصري للعلم والتاريخ على حدٍ سواء. فقد ذهب العلم إلى افتراض أن أيًا كان الحدث الذي يقع في العالم يمكن تفسيره بالنظر إلى أحداث أخرى تقع داخل العالم ذاته، وإذا كنا في بعض الأحيان غير قادرين على إعطاء تصور كامل لبعض الأحداث، فإن القناعة العلمية تقول إنه بمزيد من البحث سوف تنكشف لنا عوامل إضافية، ولكنها ستكون عوامل متأصلة في عالمنا هذا مثل تلك العوامل التي نعرفها بالفعل⁽³⁾.

ويشير بلانتينجا إلى أن كثيرًا من الفلاسفة والعلماء تبنوا نفس وجهة النظر السابقة هذه تجاه فكرة التدخل الإلهي. ومن الفلاسفة الذين رفضوا تلك الفكرة بشدة،

(1) Alvin Plantinga, "Divine Action in the World (Synopsis)," *Ratio* 19, no. 4 (2006), 496.

(2) Ibid., 497.

* المعجزة: لفظ يعني الشيء المدهش أو العجيب، وعند الجرجاني المعجزة أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة قصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، (القاهرة: دار قباء الحديثة، ٢٠٠٧) ٦٠٥.

(3) Ibid, Alvin Plantinga, "What Is 'Intervention'?" *Theology and Science* 6, no. 4 (2008), 372.

الفيلسوف الأمريكي فيليب كلايتون Philip Clayton (١٩٥٦ -) الذي يقول إن العلم خلق تحديًا لعلم اللاهوت بفضل قدرته المذهلة على تفسير الظواهر الطبيعية والتنبؤ بها، وإن أي نظام لاهوتي يتجاهل صورة العالم التي رسمتها النتائج العلمية سيُنظر إليه بعين الريبة. وقد لاقى هذا الرأي قبولًا كبيرًا في الأوساط العلمية، فعلى سبيل المثال، أنكر العالم الأمريكي هارولد. ألين أور Harold Allen Orr (١٩٦٠ -) المعجزات، وذهب إلى القول بأن أي عالم عاقل لا يمكنه قبول أي استثناءات لقوانين الطبيعة^(١).

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان الآن هو: ما موقف بلانتينجا من تلك الاعتراضات؟ في الحقيقة، يحاول بلانتينجا إثبات بطلانها فيقول:

"أنا شخصيًا قد التقيت أشخاصًا - من بينهم فيزيائيون - يشاركون بعمق في العالم العلمي المعاصر فكريًا ووجوديًا (إذا كنت أفهم المراد بالمشاركة الوجودية في عالم ما) ومع ذلك يؤمنون إيمانًا راسخًا بأن الله أقام يسوع المسيح من بين الأموات، وأن يسوع أطمع خمسة آلاف شخص وحوّل الماء إلى خمر، وشفى المرضى بطرائق إعجازية، وأن الملائكة، بل وحتى الشيطان وأتباعه، يعملون بنشاط في العالم، وهلم جرا. (علاوة على ذلك، من المرجح أن كثيرًا من هؤلاء الفيزيائيين يفهمون فيزياء الإرسال اللاسلكي - فضلًا عن التطورات العلمية اللاحقة - على نحو أفضل من فهم بولتمان وحلفائه من اللاهوتيين)^(٢).

ويضيف قائلًا: "في الواقع، إذا كان يمكن الاعتماد على استطلاعات الرأي ذات الصلة، فإن حوالي ٤٠% من العلماء الأمريكيين المعاصرين يعتقدون أن الله يستجيب للصلوات، وقد ظلت هذه النسبة ثابتة منذ عام ١٩١٥م حتى يومنا هذا. وعلى أقل تقدير، يبدو أن بولتمان وجيلكي متفائلان أكثر من اللازم بشأن مدى انتشار معتقداتهما. أليس من المحتمل أن يكونا قد عمما استنتاجاتهما استنادًا إلى عينة غير ممثلة، قد تكون مقتصرة على نفسيهما ومعارفهما؟ ثانيًا: يوجد شك في أنهما يقللان أيضًا من قدراتهما الخاصة. أعتقد أنهما إذا حاولا بجد، فقد يتوقفان عن افتراض وجود علاقة سببية غير منقطعة في العالم، علاقة تمنع الفعل الإلهي

(١) Ibid., 498.

(٢) Alvin Plantinga, *What is Intervention*, 373.

الخاص، ويسألان نفسيهما بدلاً من ذلك عما إذا كان يوجد حقاً أي سبب للاعتقاد بصحة هذا الافتراض"⁽¹⁾.

يرى بلانتينجا أن بولتمان وأتباعه يفكرون في إطار العلم الكلاسيكي Classical Science أو ميكانيكا نيوتن Newtonian Mechanics. وحسب التصور النيوتني للعالم، خلق الله العالم، وهذا العالم يشبه آلة ضخمة تعمل وفق قوانين ثابتة (قوانين الفيزياء الكلاسيكية)⁽²⁾.

لكن تصور نيوتن في رأي بلانتينجا لا يكفي إطلاقاً لدعم المذهب الرفض للتدخل الإلهي Anti-interventionism أو ما يُعرف بـ"اللاهوت اللا تدخل" Hands-off Theology. ولتوضيح هذا الرأي يقول:

"على الرغم من أن نيوتن نفسه (على الأرجح) قبل الصورة النيوتونية للعالم، لم يقبل مفهوم اللاهوت الانعزالي. فقد كان يعتقد أن الله يُعدّل مدارات الكواكب بانتظام (وإلا، وفقاً لحساباته، ستخرج الكواكب عن مساراتها). وكان يعتقد أيضاً أن الله يوجه العالم بعنايته الإلهية. والأهم من ذلك، وفقاً لفكر نيوتن والميكانيكا الكلاسيكية Classical Mechanics، تصف القوانين الطبيعية كيفية عمل العالم عندما يكون، أو بشرط أن يكون، نظاماً مغلقاً (معزولاً) غير خاضع لأي تأثير سببي خارجي (...). وعلاوة على ذلك، فإن الادعاء القائل بأن الكون المادي هو نظام مغلق، لا يُعد جزءاً من ميكانيكا نيوتن أو العلم الكلاسيكي. ولن تجد هذا الادعاء في كتب الفيزياء -وهذا أمر طبيعي- لأن هذا الادعاء لا يشكل جزءاً من الفيزياء، بل هو إضافة ميتافيزيقية أو لاهوتية"⁽³⁾.

ويلخص بلانتينجا ما سبق فيقول: "باختصار، لا يوجد في العلم الكلاسيكي أي اعتراض على الأفعال الإلهية الخاصة (...). وللحصول على مثل هذا الاعتراض، يجب أن نضيف أن الكون (المادي) مغلق سببياً. لكن هذه إضافة ميتافيزيقية أو لاهوتية، وليست جزءاً من العلم الكلاسيكي. فالعلم الكلاسيكي يتسق تماماً مع الأفعال الإلهية الخاصة بما فيها المعجزات (كالتسير على الماء، وإحياء الموتى، وخلق حصان بالغ من العدم). لا يوجد هنا صراع

(1) Ibid.

(2) Alvin Plantinga, "Divine Action in the World (Synopsis)," 498.

(3) Alvin Plantinga, What is Intervention, 374- 375.

بين الدين والعلم، بل هو صراع بين الدين والميتافيزيقا^(١). وبالاضافة إلى ذلك، يرى بلانتينجا أن ميكانيكا الكم لا تثير أي إشكالات حقيقية بشأن العلاقة بين التدخل الإلهي الخاص والعلم الطبيعي كما هي الحال مع العلم الكلاسيكي. ومن ثم، يرفض اعتقاد أنصار مشروع الفعل الإلهي Divine Action Project الذي مفاده أن الطريقة المثلى لفهم أفعال الله في الكون هي أن نفهم بطريقة غير تدخلية. ويرى بلانتينجا أن الأسباب التي دفعت أنصار هذا المشروع لرفض التدخلات الإلهية ليست أحسن حالاً من تلك الأسباب التي يستند إليها جيلاكي وآخرون.

ومن هذه الأسباب الربط بين التدخل الإلهي ومشكلة الشر، وبإمكاننا ملاحظة هذا الربط -كما يوضح بلانتينجا- لدى جورج إليس George Ellis، أحد أعضاء مشروع الفعل الإلهي البارزين، الذي ذهب إلى القول بأن مشكلة السماح بالتدخلات الإعجازية تكمن في عدم استمرارية المعجزات. ووفقاً له لو كان الله يتدخل من حين لآخر بشق البحر الأحمر وإحياء الموتى على سبيل المثال، لم لا يخفف أيضاً ألم الأسنان ويمنع حدوث الجرائم الإنسانية في معسكر أوشفيتز؟

ويعترض بلانتينجا على هذا القول؛ لأنه يرى أن التدخلات الإعجازية ليست مشكلة بالنسبة إلى المؤمن، فليس في مقدورنا السماح بحصول هذه المعجزات أو منعها. يتدخل الله تعالى -سواء أكان تدخلًا إعجازيًا أم غير إعجازي- عندما يرى أن ذلك التدخل مناسب^(٢).

وفي اعتقادي أن رفض المعجزات بحجة عدم استمراريته يفترض أن أي ظاهرة حقيقية يجب أن تكون متكررة ومتاحة للرصد الدائم، كأن الواقع بأسره يخضع لنمط آلي يمكننا توقعه باستمرار. غير أن هذا الافتراض غير مبرر، لأنه يقوم على فكرة أن التدخل الإلهي يجب أن يكون ميكانيكيًا وليس إراديًا.

(١) Alvin Plantinga, "Divine Action in the World (Synopsis)," 501.

(٢) ألفن بلانتينجا: العلم والدين والطبيعية: أين يقع التعارض؟. ترجمة يوسف العتيبي، تعليق محمد القرني (القاهرة: دار تشويق للنشر والتوزيع، ٢٠١٩)، ١١١، ١٢٠.

ولكي يفند بلانتينجا وجهة نظر إليس التي مفادها أننا نحتاج إلى قاعدة محددة لفهم التدخلات الإلهية، يقول: "سيتدخل الله (على افتراض أن التدخل هي الكلمة الصائبة في هذا السياق) عندما يكون لديه سبب معقول للتدخل، ولكن لماذا نفترض نحن البشر أننا في مكانة تسمح لنا بمعرفة ما إذا كان لديه تعالى سبب معقول أم لا؟ قد نكون في حالة مشابهة لنبي الله أيوب، فما حصل لأيوب كان نتيجة لتفاعلات خفية بين كائنات مجهولة تمامًا بالنسبة إليه. ألا يمكن أن تنطبق قصة أيوب علينا؟ بلى، قد لا نستطيع معرفة سبب تدخل الله (أقول مرة أخرى: هل "التدخل" هو المصطلح المناسب في هذا السياق؟) لإحياء الموتى وعدم تدخله لإنقاذ ضحايا معسكر أوشفيتز، ولكن لماذا ينبغي أن يدفعنا جهلنا بالسبب للاعتقاد بأنه لا يتدخل على الإطلاق؟ ليس من المعقول أن يقال: لو كان لديه سبب مقنع لكنا أول العارفين. إن مثل هذه القرارات أعقد بكثير من أن تستوعبها عقولنا المحدودة، لذا من الصعب جدًا الحصول على قاعدة صلبة تحكم قرار التدخل الإلهي"^(١).

ويتراءى لي أن بلانتينجا محق في نقده لجورج إليس، لأن المطالبة بقاعدة محددة لفهم التدخلات الإلهية تفترض ضمناً أن العقل البشري قادر على الإحاطة بأسباب الأفعال الإلهية، كأن اللامحدود يجب أن يخضع لمقاييسنا المحدودة. وبالإضافة إلى ذلك، يتضمن اشتراط فهم شامل للتدخل الإلهي قبل قبوله، مغالطة معرفية تفترض أن ما لا نحيط به لا يمكن أن يكون حقيقياً. لكن هذا الشرط يكشف عن تحيز معرفي، فهو يفترض أن عدم فهمنا للتدخل الإلهي يعني عدم وجوده، كأن إدراكنا المحدود هو المقياس الوحيد للواقع.

ويوجد اعتراض آخر على فكرة التدخل الإلهي يوضحه لنا بلانتينجا من خلال وجهة نظر إليس، التي مفادها أن القوانين التي تحكم تصرفات المادة دون التدخل الخارجي هي شرط أساسي لوجود كائنات قادرة على ممارسة الاختيار الحر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بلانتينجا يرى أن كلمة "تدخل" محملة بمعانٍ سلبية، فالمتدخل هو ذلك الذي يتصرف في ما لا يعنيه، والذي يجب أن يشعر

(١) المرجع نفسه، ١٢٠.

بالخجل من نفسه، ولكن الله هو خالق الكون ومدبر شؤونه، والعالم كله تحت ملكه في الحقيقة، فكيف توصف أفعاله بأنها "تدخل" و"تصرف في ما لا يعنيه"؟ ويعتقد بلانتينجا أن إليس يريد أن يقول: لو تدخل الله في عالمنا، لن نكون قادرين على اتخاذ قرارات معقولة بشأن ما نفعله. ومن ثم، ليست المسألة متعلقة بحرية الاختيار، والمراد هو أن انتظام الطبيعة الذي نعتمد عليه عند اتخاذ القرارات سيكون مفقوداً في حال كان الله يتدخل باستمرار في الكون. (لو كان الله يحول السيارة إلى فيل باستمرار، فسيكون من الصعب على المرء الذهاب إلى البقالة)^(١).

ويتساءل بلانتينجا: هل إليس على صواب؟ ويجب بأن ممارسة الاختيار الحر تعتمد على الانتظام والقابلية للتوقع، لا على غياب التدخل الإلهي (قابلية التوقع بالنسبة إلى من يقوم بالاختيار الحر). لن يكون الاختيار الحر ممكناً في عالم يفقد الانتظام والقابلية للتوقع، حتى لو لم يتدخل الله فيه، وسيكون من الممكن ممارسة الاختيار الحر في عالم خاضع للتدخلات الإلهية، بشرط أن تكون هذه التدخلات منتظمة الوقوع وقابلة للتوقع.

وفي رأي بلانتينجا، حتى لو سلمنا جدلاً بأن التدخل الإلهي يسبب دائماً عدم الانتظام في الطبيعة، فمن الغلو القول بأن التدخل الإلهي وإن كان محدوداً في بعض الأوقات سيتسبب في استحالة ممارسة الاختيار الحر. المطلوب للقيام بالاختيار الحر هو وجود انتظام كافٍ إلى حد ما يمكننا من أن نتوقع -بنحو معقول- ما سيحصل في حال اخترنا القيام بفعل ما^(٢).

وفي رأيي أن اعتراض إليس يتجاهل إمكانية أن تكون حرية الإنسان نفسها جزءاً من التدبير الإلهي. ومن الملاحظ -في تقديري- أن رفض بلانتينجا لوصف الأفعال الإلهية بـ"التدخل" يكشف عن رغبته في تفكيك هذا المفهوم، وتسييل الضوء على خلل جوهرى في بنيته، لأن هذا الوصف يفترض وجود نظام مستقل تسيير فيه الأمور وفق قوانينه الخاصة، ثم تتدخل الإرادة الإلهية من خارجه. ومن المؤكد أن هذا الوصف، الذي يفترض انفصلاً بين الإله والعالم، لن يكون مقبولاً

(١) المرجع نفسه ١٢٠-١٢١.

(٢) المرجع نفسه، ١٢١.

لدى أتباع الأديان التوحيدية، فهو يتعارض مع الرؤية التي تجعل من الإرادة الإلهية أصلاً لكل وجود، وليس كياناً خارجاً عن العالم يتدخل فيه عرضياً.

وأما الاعتراض الثالث على فكرة التدخل فقد جاءت صورته - كما يوضح بلانتينجا- على النحو الآتي: "خلق الله الكون، وخلق معه انتظاماً معيناً، ولكنه أحياناً يتصرف خلافاً لهذا الانتظام. إنه يدير شؤون العالم الذي لا تتحول فيه المياه عادة إلى خمر، ولا يمشي فيه الناس على الماء، ولا يعود فيه الأموات إلى الحياة. ولكنه أحياناً يتصرف خلافاً لما سبق، فيسمح لعيسى -عليه السلام- بتحويل الماء إلى خمر، وبالمشي على الماء، وإحياء الموتى، وبأن يعود عيسى نفسه إلى الحياة في اليوم الثالث بعد موته. وهذه التصرفات يقال عنها إنها تدل على عدم الاتساق لأن الله لا يتصرف غالباً على هذا النحو"^(١).

ويشير بلانتينجا إلى أن هذا الاعتراض لاهوتي المنشأ وليست له علاقة بالعلم الطبيعي. فالفكرة هي أن الله لا ينبغي له أن يقوم بمثل هذه التصرفات المخالفة لطبيعته المقدسة. ويشير كذلك إلى أن عدم الاتساق ليس المراد به هنا عدم الاتساق الناتج عن فرض صحة قضيتين منطقيتين متناقضتين مثلاً، ولكن المراد هو عدم الاتساق الناتج عن اختلاف ردة الفعل حيال نفس القضية، كأن يستجيب المرء لإزعاجات زوجته بصبر وطول بال، ثم يستجيب لمثل هذه الإزعاجات لاحقاً -وفي نفس الظروف- بغضب وشدة^(٢).

ووفقاً لبلانتينجا، هذا الاعتراض لا أساس له من الصحة، ويتبدى لنا ذلك من قوله: "تبدو المشكلة هنا في الاعتبارية الناتجة عن التصرف بطريقتين متناقضتين في نفس الكون الذي خلقه الله (...). تنص الدعوى على أن الله لو تصرف أحياناً على خلاف النظام الذي ارتضاه للكون، فإن ذلك يعد نوعاً من عدم الاتساق الاعتباري. ولكن هل هذه الدعوى صائبة في حقيقة الأمر؟ سيكون الأمر اعتبارياً فقط إن لم يكن لله سبب خاص يدفعه للقيام بمثل هذه التصرفات المخالفة للنظام الطبيعي، ولكن من المحتمل جداً وجود مثل هذه الأسباب. يتضح هذا السبب في حالة إحياء عيسى -عليه السلام- من موته؛ يريد الله أن يبين للناس مكانة عيسى

(١) المرجع نفسه، ١٢٣.

(٢) المرجع نفسه، ١٢٣-١٢٤.

عنده بواسطة إحيائه من الموت. وفي حالات أخرى، قد تكون لله أسباب معقولة للتصرف بطريقتين متناقضتين في الكون، فكيف يمكننا أن ندعي التأكد من عدم وجود هذه الأسباب؟^(١).

ويستطرد قائلاً: "قد يكون سبب خلق الله للانتظام في الطبيعة أن يكون العلم والاختيار البشري الحر ممكناً لمخلوقاته، وأيضاً قد تكون له -تعالى- أسباب وجيهة للتصرف بخلاف هذا النظام كأن يحد بعض الأحداث المهمة على سبيل المثال، أو لتوضيح قدرته ومحبه لعباده، أو لتثبيت حجة قول أنبيائه، أو لتغيير مسار التاريخ في اتجاه محدد (...). لن يكون أي مما سبق متعارضاً أبداً مع طبيعته المقدسة"^(٢). وهكذا، يتضح لنا مما سبق أن بلانتينجا لم يقتنع بكل الأسباب التي دفعت أعضاء مشروع الفعل الإلهي لرفض فكرة التدخل الإلهي.

٣- الحجة التطورية الموجهة ضد المذهب الطبيعي

في البداية تجدر الإشارة إلى أن بلانتينجا يعتقد بعدم الحاجة إلى الجدل بشأن وجود توافق ظاهري -على الأقل- بين المذهب الطبيعي Naturalism والعلم؛ فأنصار المذهب الطبيعي يروجون هذا الادعاء بصخب شديد. إنهم يعلنون ولاءهم للعلم؛ ويرفعون رايته؛ ويحيطون أنفسهم بهالة العلم كما يفعل السياسي مع رمزية العلم الوطني، فيدعون بثقة أن المذهب الطبيعي جزء لا يتجزأ من "الرؤية العلمية للعالم"، وأن ظهور العلم كشف عن أن المعتقدات الخارقة للطبيعة ليست إلا مجموعة من الخرافات -التي ربما كانت مقبولة أو حتى معقولة في عصر ما قبل العلم- لكنها الآن قد تم تجاوزها^(٣).

وفي واقع الأمر، يرى بلانتينجا أن وجهة النظر القائلة بأننا كنا سابقاً نعيش في ظلمات الجهل والخرافات، ولكن بفضل العلم أصبحت الحقائق جلية، هي وجهة نظر مضللة، فالطبيعيون Naturalists عادةً لا يوضحون بدقة سبب اعتقادهم أن العلم يسوغ المذهب الطبيعي ويدعمه؛ ويكتفون فقط بإعلان ادعائهم على أنه حقيقة. وغالباً ما يجادلون بأن نظريات داروين، وليست الاكتشافات العلمية الكبرى مثل

(١) المرجع نفسه، ١٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ١٢٤-١٢٥.

(٣) Plantinga, Alvin: *Where the Conflict Really Lies*, 442-443.

ميكانيكا الكم، والنسبية العامة، والجدول الدوري للعناصر، هي التي أطاحت بالإيمان بالله وبالمعتقدات الخارقة للطبيعة. وعلى سبيل المثال، ذهب ستيفن جاي جولد^(١) Stephen Jay Gould (١٩٤١-٢٠٠٢) إلى القول بأننا قبل داروين كنا نعتقد بوجود إله خالق رحيم، وأما الآن، بعد داروين، فإننا على يقين بعدم وجود يد إلهية رحيمة تتدخل لضبط كوننا. ويتفق جورج جايلورد سيمبسون (١٩٠٢-١٩٨٤) George Gaylord Simpson مع هذا الطرح، فهو يؤمن بأن الإنسان هو نتاج عملية طبيعية عشوائية لم تكن تهدف إلى وجوده^(٢).

لكن بلانتينجا يرى أن هذه الأقوال ناتجة عن وجود خلط بين التطور الموجه Guided Evolution والتطور غير الموجه Unguided Evolution، وكذلك خلط بين العلم الرصين Sober Science والإضافات الفلسفية أو اللاهوتية. ويجادل بلانتينجا بأنه على الرغم من التوافق الظاهري بين المذهب الطبيعي والعلم، ووجود ادعاءات بأن العلم يتضمن أو يتطلب أو يدعم أو يؤكد أو يتوافق بنحو جيد مع المذهب الطبيعي، فإن الحقيقة هي أن العلم والمذهب الطبيعي

(١) ستيفن جاي جولد هو عالم أمريكي مختص في الأحافير (الحفريات) وعلوم التطور، ومن أكثر الكتاب العلميين انتشارًا وتأثيرًا في المجتمع، وقد أمضى كثيرًا من الوقت في التدريس بجامعة هارفارد أستاذًا للجيوولوجيا، بالإضافة إلى عمله الأساسي بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بمدينة نيويورك. هاجم في حياته ما يسمى بـ"القمع الثقافي في جميع أشكاله، خاصة ما يسمى بـ"العمل الزائف"، الذي يكثر استخدامه لخدمة الأغراض العنصرية والتفرقة المبنية على العرق. انضم إلى مجموعة من النشطاء باسم "العلم من أجل الشعب". خاض كثيرًا من المعارك الثقافية والعلمية حول نظرية داروين ونظرية التطور، من أجل تصحيح المفاهيم الخاطئة التي انتشرت حولها دون وجه حق. كتب بعض المراجعيات العلمية كان آخرها كتابه تركيب نظرية التطور The Structure of Evolutionary Theory الذي انتهى منه قبل وفاته، بالإضافة إلى كثير من الكتب العلمية للعامة، وقد حصل على كثير من الجوائز والميداليات، إلى جانب ٤٤ درجة شرفية، و٦٦ درجة زمالة. ستيفن جاي جولد، *صخور الزمان: دور العلم والدين في اكتمال الحياة*، ترجمة: أ. د. محمود خيال، إشراف وتحرير: محسن يوسف، تقديم: أ. د. إسماعيل سراج الدين، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨)، ٢٥٧.

(٢) Ibid., 443.

لا يتوافقان على الإطلاق، لوجود تنافر عميق وتناقض جوهري وتعارض أساسي بينهما. وعليه، يقدم حجة تفيد بوجود تعارض عميق لا يمكن تجاوزه بين المذهب الطبيعي ونظرية التطور، وبالتالي بين المذهب الطبيعي والعلم^(١). وتجدر الإشارة هنا إلى أن جدال بلانتينجا لا يتعلق بنظرية التطور العلمية في حد ذاتها، ولا يهدف إلى إثبات أن التطور غير الموجه لا يمكنه إنتاج مخلوقات ذات ملكات موثوقة قادرة على تكوين المعتقدات. وعلى الرغم من شكه الشديد في قدرة التطور غير الموجه على إنتاج تلك المخلوقات، يؤكد بلانتينجا أن عجز التطور لا يُشكّل مقدمة لحجته أو نتيجة لها. بالإضافة إلى ذلك، يؤكد أن حجته لن تهدف إلى إثبات عدم صحة المذهب الطبيعي، رغم اعتقاده الشخصي الراسخ ببطلانه.

ما يود بلانتينجا إثباته هو أن المذهب الطبيعي يتعارض مع التطور بوصفه الركن الرئيس في صرح العلم المعاصر. وهذا التعارض لا يكمن في أنهما لا يمكن أن يكونا صحيحين معاً (فهما لا ينطويان على تناقض منطقي) بل بالأحرى يكمن في صعوبة قبولهما معاً بنحو معقول. ولتوضيح ذلك يستخدم القياس الآتي:

"لا أستطيع، من الناحية العقلانية، أن أومن بعدم وجود أي معتقدات، أو بعدم وجود أي معتقدات صحيحة، أو بأن كل معتقداتي خاطئة. هذه الأمور كلها واردة، لكنها غير مقنعة. وعلى نحو مشابه، أود أن أجادل بأنه لا يمكن للمرء أن يؤمن، على نحو معقول، بالمذهب الطبيعي ونظرية التطور في آن واحد. وإذا كانت حجتي مقنعة، فإن ذلك يستتبع وجود تعارض جوهري بين المذهب الطبيعي ونظرية التطور، ومن ثم تعارض جوهري بين المذهب الطبيعي والعلم"^(٢).

ويشير بلانتينجا إلى أن تصنيف المذهب الطبيعي ضمن الأديان لا يزال محل جدل، لوجود قدر كاف من الغموض حول مفهوم الدين يصعب معه الجزم بنسبة المذهب الطبيعي إليه من عدمه. بيد أن المذهب الطبيعي يقدم إطاراً تفسيرياً شاملاً يشابه ما تقدمه الأديان، فهو يقدم سرداً كلياً يهدف إلى الإجابة عن أسئلة البشر الجوهرية. إنه يبين لنا ماهية الواقع الأساسية، وموضعنا في الكون، وعلاقتنا بالكائنات الأخرى، وكيفية نشأتنا. وبالتالي، ينافس المذهب الطبيعي الأديان

(١) Ibid., 444-446.

(٢) Ibid., 446.

التوحيدية الكبرى، فرغم أنه لا يعتبر دينًا بالمعنى التقليدي، يظل يؤدي أحد الأدوار الرئيسية للدين. ومن هذا المنطلق يُسمى بلانتينجا هذا المذهب بـ"المذهب الشبيه بالدين" Quasi-Religion^(١).

ووفقًا لهذا المذهب لا وجود لشخص مثل الله، فلا يوجد سوى الزمكان، والأشياء والأحداث المادية في الزمكان. ولأنه لا يوجد شيء يتجاوز الطبيعة، أي يتجاوز الزمكان، فلا وجود لما هو خارق للطبيعة. وبذلك يلزم عن الطبعانية (المذهب الطبيعي) أن لا وجود لغاية عظمى أو تصميم في الطبيعة، لأنها تنكر وجود أي مرید لغاية أو مصمم^(٢).

وبعبارة أخرى، تتمحور الطبعانية حول دعوى إنكار أي غاية للكون، وتترتب على هذه الدعوى المحورية ضرورة أن ملكاتنا الإدراكية ليست لها غاية تهدف إلى تزويدنا بمعتقدات صادقة، بل هي مجرد ملكات لا غاية لها على الإطلاق. إن رفض الطبعانية للغاية يعني أن التطور غير الموجه لا يكثرث بالمعتقدات الصادقة. فلا يهتم التطور غير الموجه إلا بالسماوات والسلوكيات التي تساعد على البقاء. فالتطور بالنسبة إلى الطبعاني ليست له غاية يهدف إليها ولا خطة تصميم لأي شيء، لكن بعض المخلوقات ينجو ويبقى ويتكاثر بدرجة أفضل من غيره، ثم تنتقل السلوكيات والسماوات التي سمحت له بالبقاء إلى الجيل التالي^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن حجة بلانتينجا تدور حول موثوقية ملكاتنا المعرفية، تلك الملكات أو العمليات التي تنتج فينا المعتقدات أو تمدنا بالمعرفة. فذاكرة المرء، على سبيل المثال، لا تكون موثوقة إلا إذا أنتجت معتقدات صحيحة في غالب الأحيان، أي إذا كانت غالبية معتقداته الناشئة عن ذاكرته صحيحة.

وهنا يشير بلانتينجا إلى أن بإمكان المرء أن يتحدث عن موثوقية إحدى ملكاته المعرفية، كذاكرة على سبيل المثال، وأيضًا يمكنه التحدث عن موثوقية ملكاته المعرفية ككل. فالمرء عادةً يعتقد أن ملكاته موثوقة، وهي تكون كذلك على أية حال عندما تعمل بنحو صحيح، أي في حالة عدم وجود أي خلل أو اضطراب

(١) Ibid., 446-447.

(٢) كيلي جيمس كلارك، الله والدماغ: عقلانية الاعتقاد، ط١ (وهران: ابن النديم للنشر والتوزيع؛ بيروت: دار الروافد الثقافية، ٢٠٢٢)، ٢٠٩.

(٣) المرجع نفسه، ٢٠٤.

معرفي. (فإذا كان المرء في حالة سكر ويعاني الهذيان الارتعاشي، سيكون إدراكه مشوشاً وغير موثوق بأي حال). ويعتقد أيضاً أن موثوقية هذه الملكات تتفاوت باختلاف الظروف المحيطة، ففي بعض الظروف تكون هذه الملكات أكثر موثوقية مقارنة بظروف أخرى. فمثلاً، قد يكون إدراكنا البصري للأشياء ذات الحجم المتوسط والقريبة منا أكثر موثوقية مقارنة بالأشياء شديدة الصغر أو الأشياء البعيدة (مثل رؤية ماعز جبلي على بعد ستمئة ياردة). واعتقادات المرء عن مكان وجوده بالأمس تكون عادةً أكثر موثوقية من أحدث النظريات العلمية المتقدمة^(١). ويلخص بلانتينجا الفكرة الأساسية لحجته على النحو الآتي:

"أولاً، إن احتمالية أن تكون ملكاتنا المعرفية موثوقة، بافتراض صحة المذهب الطبيعي ونظرية التطور، هي احتمالية منخفضة. (وبعبارة أقل دقة ولكنها أكثر إيضاحاً، لو كان المذهب الطبيعي ونظرية التطور صحيحين معاً، لكنت ملكاتنا المعرفية -على الأرجح- غير موثوقة). لكن وفقاً للمقدمة الثانية في حجتني، إذا آمنت بالمذهب الطبيعي ونظرية التطور معاً، فإن هذا يعني أنني أمتلك دليلاً مُبطلًا لافتراضي البديهي القائل بأن ملكاتي المعرفية موثوقة. وإذا كان لدي دليل مُبطل لهذا الاعتقاد، فعندئذ سيكون لدي أيضاً دليل مُبطل لأي اعتقاد اعتبره ناتجاً عن ملكاتي المعرفية. وهذا يعني أن لديّ ما يبطل اعتقادي بأن المذهب الطبيعي ونظرية التطور صحيحان. وهكذا يواجه اعتقادي بصحة المذهب الطبيعي ونظرية التطور دليلاً مبطلًا، فهذا الاعتقاد يدحض نفسه ويفتقر إلى الاتساق الذاتي، ولذلك لا يمكنني قبوله بعقلانية. وإذا كان المرء لا يستطيع قبول كل من المذهب الطبيعي ونظرية التطور، وهما ركيزتان أساسيتان في العلم المعاصر، فإن هذا يشير إلى وجود تعارض جوهرى بين المذهب الطبيعي والعلم"^(٢).

ويشير بلانتينجا إلى أن الشكوك حول موثوقية ملكاتنا المعرفية، في حال كان المذهب الطبيعي ونظرية التطور (أو المذهب الطبيعي فقط) صحيحين، قد عبر عنها كثير من الفلاسفة أمثال: فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) Friederich Nietzsche وتوماس نايجل (١٩٣٧-) Thomas Nagel وباتريشيا تشيرتشلاند (١٩٤٣-) Patricia Churchland.

(١) Plantinga, Alvin: *Where the Conflict Really Lies*, 448-450.

(٢) Ibid., 451-452.

فإذا نظرنا إلى نيتشه نجده قد رأى أنه ليس من الإنصاف وصف استناد ديكارت إلى مصداقية الله بأنه أمر سطحي. ففي الواقع، لا يمكن أن يكون لمفهوم "الحقيقة" والبحث عنها أي معنى أو جدوى إلا إذا افترضنا وجود إله يشبهنا أخلاقياً. وإذا وضعنا هذا الافتراض الإلهي جانباً، يمكننا التساؤل عما إذا كان الخداع جزءاً لا يتجزأ من الحياة.

وقد طرح توماس ناجل وجهة نظر مفادها أنه إذا افترضنا أن قدرتنا على صياغة النظريات الموضوعية (كتكوين المعتقدات الصحيحة، على سبيل المثال) هي نتيجة للانتقاء الطبيعي، فإن هذا سيبرر التشكيك الجاد في نتائجها^(١). وأما باتريشيا تشيرتشلاند فقد جادلت بأن علم الأحياء يتحدى الفكرة البديهية القائلة بأن الوظيفة الأساسية للدماغ هي اكتساب معارف قضوية عن العالم^(٢).

وترى أن عملية التطور، عند النظر إليها من منظور طبيعي، تضمن لنا (في أفضل الأحوال) أننا نتصرف بطرائق معينة -وهي طرائق من شأنها تعزيز البقاء على قيد الحياة، أو بنحو أكثر دقة، تحقيق النجاح الإنجابي Reproductive Success- وبالتالي، لا تتمثل الوظيفة الأساسية لملاكاتنا المعرفية في إنتاج معتقدات صحيحة أو قريبة من الصحة، وإنما في تعزيز فرص البقاء عن طريق توجيه السلوك نحو التكيف مع البيئة. وبالتأكيد، تضمن عملية التطور أن سلوكنا يتكيف مع الظروف التي عاش فيها أسلافنا، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن معتقداتنا ستكون صحيحة أو قريبة من الصحة. قد تكون معتقداتنا صحيحة إلى حد كبير أو قريبة من الصحة، ولكن لا يوجد سبب محدد للاعتقاد بأنها ستكون كذلك، فالانتخاب الطبيعي يهتم بالسلوك المناسب ولا يولي اهتماماً للحقيقة^(٣).

ولذلك ترى باتريشيا تشيرتشلاند أن التطور الطبيعي Naturalistic Evolution -أي اقتران المذهب الطبيعي الميتافيزيقي Metaphysical Naturalism بوجهة النظر القائلة بأننا وملكاتنا المعرفية قد نشأنا من خلال الآليات والعمليات التي تقترحها نظرية التطور المعاصرة- يمنحنا سبباً للشك في أمرين:

(١) Ibid., 452-453.

(٢) كيلي جيمس كلارك، الله والدماغ: عقلانية الاعتقاد ٢١٤.

(٣) Plantinga, Alvin *Where the Conflict Really Lies*, 454.

أ- أن أحد أغراض أنظمتنا الإدراكية هو تزويدنا بمعتقدات صحيحة.

ب- وأن أنظمتنا الإدراكية، في الواقع، تزودنا بمعتقدات صحيحة في غالب الأحيان^(١).

ويذهب بلانتينجا في موضع آخر إلى القول بأنه إذا كان الوجود مقتصرًا على الكيانات المادية فقط، فمن المنطقي أن نستنتج أن الإلحاد Atheism هو النتيجة الحتمية. ومع ذلك، تواجه المادية Materialism نفسها تحديًا كبيرًا، لصعوبة تصديقها على نحو معقول، خاصة إذا اعتقدنا -كما يعتقد غالبية الماديين- أن البشر هم نتاج عملية التطور.

ولتوضيح هذا الأمر يقول: "إذا كانت المادية صحيحة، فهذا يعني أن البشر كائنات مادية بطبيعة الحال. وهنا يبرز سؤال: كيف يمكننا فهم طبيعة الاعتقاد في ضوء التصور المادي للبشر؟ على سبيل التوضيح، يمكن التفكير في اعتقاد من قبيل أن مارسيل بروسست أكثر رفاة من لويس لامور. من المفترض أن يكون هذا الاعتقاد بنية مادية داخل الدماغ، مكونة من مجموعة من الخلايا العصبية ترسل إشارات كهربائية إلى بنيات أخرى مشابهة، وإلى الأعصاب والعضلات، وتتلقى بدورها إشارات كهربائية من بنيات أخرى. لكن بالإضافة إلى هذه الخصائص العصبية الفسيولوجية، فإن هذه البنية -إذا كانت فعلاً تمثل اعتقادًا- لا بد من أن يكون لها أيضًا محتوى دلالي، أي أن تجسد اعتقادًا ذا مضمون معرفي، مثل: "مارسيل بروسست أكثر رفاة من لويس لامور"^(٢).

وبلانتينجا هنا مهتم بحقيقة أن الاعتقاد يتسبب (أو على الأقل يسهم) في حدوث الأفعال. ويوضح هذا الأمر من خلال طرحه للمثال الآتي: "يمكن لاعتقادي بوجود مشروب كحولي في الثلاجة (بالإضافة إلى رغبتني في تناول هذا المشروب) أن يتسبب في مغادرة مقعدي المريح والتوجه نحو الثلاجة. والنقطة المهمة هنا أن سبب تحول الاعتقاد إلى فعل يكمن في خصائصه المادية. فبفضل تلك الإشارات الكهربائية المرسله عبر الأعصاب إلى العضلات المعنية، تسبب اعتقادي بوجود

(١) Ibid., 455.

(٢) Gutting, Gary: *Talking God: Philosophers on Belief*, (New York: W. W. Norton & Company, 2017), 14.

المشروب الكحولي في الثلجة في ذهابي إلى الثلجة، وليس بفضل محتوى الاعتقاد (وجود مشروب كحولي في الثلجة)^(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بلانتينجا توصل إلى هذا الاستنتاج لأن هذا الاعتقاد - هذه البنية- إذا كان له محتوى مختلف تمامًا (حتى لو كان اعتقادًا بعدم وجود مشروب كحولي في الثلجة) واحتفظ بنفس الخصائص العصبية الفسيولوجية، لكان الناتج السلوكي المتوقع هو نفسه (التوجه إلى الثلجة). وهذا يعني أن محتوى الاعتقاد لا يمثل السبب الفعلي في حدوث السلوك. وفيما يتعلق بسبب السلوك، لا أهمية لمحتوى الاعتقاد^(٢).

وهذا الاستنتاج جعل جاري جتتج يوجه تساؤل لبلانتينجا قائلاً: "يبدو أن هذا الاستنتاج صعب القبول، لكن هل يمكن لنظرية التطور أن تساعد أنصار المادية في التغلب على هذه المشكلة؟ فمن أجل بقاء النوع البشري يفترض أن بعض معتقداتنا، إن لم يكن معظمها، يجب أن يكون صحيحًا، وإلا لن نكون قادرين على البقاء والتكيف في عالم مليء بالمخاطر"^(٣).

ويجيب بلانتينجا قائلاً: "إن التطور سيؤدي إلى أن تكون لدينا معتقدات تساعدنا على التكيف مع بيئتنا، أي معتقدات تسبب سلوكيات تكيفية. ولكن كما رأينا، إذا كانت المادية صحيحة، فإن الاعتقاد لا يسبب السلوك التكيفي من خلال محتواه، بل من خلال خصائصه العصبية الفسيولوجية. لذا، لا يهم ما محتوى الاعتقاد، ولا يهم ما إذا كان صحيحًا أم خاطئًا. كل ما هو مطلوب أن يمتلك الاعتقاد الخصائص العصبية الفسيولوجية المناسبة. إذا كان الاعتقاد صحيحًا فهذا جيد، وإذا كان خاطئًا فلا بأس أيضًا. فعملية التطور ستختار العمليات التي تنتج معتقدات ذات خصائص عصبية فسيولوجية تكيفية، ولكنها لن تختار العمليات التي تنتج معتقدات صحيحة. وبالنظر إلى المادية ونظرية التطور، فإن احتمالية أن يكون أي اعتقاد معين صحيحًا أو خاطئًا متساوية"^(٤).

(١) Ibid.

(٢) Ibid., 14-15.

(٣) Ibid., 15.

(٤) Ibid.

وعلى ذلك، فإن ادعاء بلانتينجا هو أنه إذا كانت المادية صحيحة، فإن عملية التطور لا تضمن بالضرورة أن تكون معظم معتقداتنا صحيحة. وبالتالي، إذا سلم المرء بصحة المادية ونظرية التطور معًا، سيكون لديه سبب وجيه للاعتقاد بأن ملكاته المعرفية المنتجة للمعتقدات ليست موثوقة. لكن الاعتقاد بذلك يؤدي به إلى الشك في كل شيء، ويجعله غير قادر على قبول أي من معتقداته، بما فيها تلك المتعلقة بالمادية ونظرية التطور. والمسار الوحيد المعقول هو التخلي عن الادعاء الذي يؤدي إلى الاستنتاج القائل بأن المادية ونظرية التطور صحيحتان معًا. قد يكون من الممكن قبول إحداهما، لكن ليس كليهما. لذا، يخلص بلانتينجا إلى القول بأن المرء إذا كان ملحدًا لمجرد أنه يقبل المادية، فإن الحفاظ على إلحاده يعني أن عليه التخلي عن اعتقاده بصحة نظرية التطور^(١).

نتائج البحث

يبرز من العرض السابق لإشكالية التعارض بين العلم والدين عدد من العناصر، لعل من أهمها ما يمكن استخلاصه من النقاط الآتية:

- ١- إن بلانتينجا لم ينظر إلى التطور على أنه نقيض للإيمان، بل اعتبره تجليًا لألية الخلق الإلهي في الكون. ولهذا أكد أن الداروينية، بوصفها تفسيرًا علميًا لنشوء الأنواع عبر الانتقاء الطبيعي، لا تستبعد فكره أن التطور هو جزء من النظام الذي وضعه الله وأشرف على توجيهه.
- ٢- إن تشديد بلانتينجا على ضرورة التمييز بين العلم والتفسير الميتافيزيقي لنظرية التطور، ناجم عن اعتقاده بأن غياب هذا التمييز قد يؤدي إلى تحميل نظرية التطور افتراضات فلسفية لا تنبع من أسسها العلمية، ما قد يشوه فهمها ويخلط بين الحقائق العلمية والتأويلات الفكرية.
- ٣- إن السبب الذي دفع بلانتينجا لرفض وجهة النظر القائلة بأن "في حالة وجود مصادر أخرى للمعرفة غير العقل، ستكون نتائج تلك المصادر بالضرورة متعارضة مع العقل" هو قناعته الراسخة بأن الإيمان يقدم تصورات عن الحقيقة لا يمكن للعقل وحده أن يصل إليها.

(١) Ibid.

٤- أكد بلانتينجا أن وصف الأفعال الإلهية بـ"التدخل" يقوم على تصور خاطئ يفترض وجود نظام مستقل عن الإله، كأن الإله يغيّر مسار شيء خارج عن تدبيره المطلق. وينبع هذا التأكيد من إيمانه بأن الإله، بصفته الخالق والمدبر، يحكم كل شيء بإرادته، وبالتالي فما يُسمى بالتدخل الإلهي ليس فعلاً استثنائياً، بل استمرار لحكمه غير المنفصل عن العالم.

٥- إن بلانتينجا محق في تفنيده للموقف الراض للمعجزات، فنقده يكشف عن مواطن الاضطراب المنهجي في هذا الرفض، ما يجعله أقرب إلى افتراض مسبق غير مبرر عقلاً. والواقع يكشف عن تباين واسع لمواقف العلماء أنفسهم تجاه المعجزات. وبالتالي، من يتجاهل هذا الواقع يفترض ضمناً أن العلم منظومة فكرية واحدة ذات رأي قاطع بشأن المعجزات، ومن ثم يتبنى افتراضاً اختزالياً للواقع.